



برسى بيش شلى

١٧٩٢ - ١٨٢٢ م

آراؤه فى الدّود عن الشعر

(٣)

والتجربة الحديثة تخرج المسلاة بالمأساة مع أنها معرضة إلى الخطأ من حيث وجهة الاستعمال إلا أنها من غير شك توسيع للدائرة المسرحية . ولكن المسلاة يجب أن تكون فى رواية الملك لير شاملة وكاملة وتصوّرية ، وربما كان دخول هذه النظرية التى ترجع جانب الملك لير King Lear على Oedipus Tyrannus أو Agammemnon أو إن أردت الثلاث الروايات التى ترتبط بها ما لم يعتبر الافراط فى قوة الشعر المنشور لا سيما فى الأخيرة كمجدّد للتوازن .

فالملك لير - لو احتملت هذه المقارنة - يمكن أن تعتبر أكل عمل من حيث الفن تمثيلى وُجد حتى الآن على الرغم من الحالات الضيقة التى خضع لها الشاعر لجهله فلسفة الدراما التى عمّت أوروبا الحديثة فكالدين Caldeon فى روايته الدينية Autos حاول أن يدخل بعض الحالات السامية فى التمثيل المسرحى التى أهلها شكسبير كأن يربط الدراما بالدين ويلأتهما للموسيقى والرقص ولكنه يهمل ملاحظة بعض الحالات الأكثر أهمية وما يفقد أكثر مما يكتسب .

ولكنى أستطرد فأقول إن علاقة أشكال النظر بسلامته أو فساد أخلاق الناس قد باتت واضحة تماماً أى أنه قد تبين أن وجود الشعر أو غيابه فى أكل وأعم صورة مرتبط بالحسن والقبح فى الأخلاق والعادات .

فالدراما فى أثينا أو فى أى مكان آخر وصلت فيه إلى درجة الكمال نمت دأماً مع

عظمة العصر الأخلاقية والعقلية . وما سى شعراء أئمتنا كالمرايا التي يرى فيها المشاهد نفسه من خلال ستار الحادثة الرقيقة مجردة من كل شيء إلا من الكمال الأعلى والنشاط اللذين يشعران كل إنسان بأنه النموذج الحقيقي لكل ما يعرف ويعجب وما يحب أن يكونه . فقد وسع الخيال باستعذاب الآلام والميل إلى الأهواء والعواطف .

وفي الدراما الممتازة نجد قليلاً من الغذاء للكراهية والبغضاء فهي تعلمنا عوضاً عنها معرفة النفس واحترامها . فلا العين ولا العقل يستطيعان أن يريا نفسيهما إلا بالانعكاس على شيء يشبههما ، وما دامت الدراما سائرة في الافصاح عن الشعر فهي كالمراة الكثيرة الجوانب المنشورية الشكل التي تجمع أبهى أشعة الطبيعة الانسانية وتقسّمها وتبرزها كالصور الأولية وتخلع عليها جلالاً وجمالاً وتضاعف كل ما تعكسه .

ولكن في عصور تدهور الحياة الاجتماعية تساهم الدرامات في ذلك التدهور فتصبح المأساة تقليداً ممقوتاً لصورة روائع الادب القديم خالية من ذلك الذي يصحب دائماً سائر الفنون . الشعر سيف براق قد استل من غمده فهو يأتي على القرب الذي يحويه اذا عاد اليه ، ولذلك نشاهد أن كل الكتابات المسرحية التي من هذه الطبيعة ليست كثيرة التصور في درجة ممتازة فهي تؤثر في الشعور والعاطفة اللتين كانت بخلوها من الخيال أسماء أخرى للهوى والميل وإن عصر تدهور الدراما ذلك التدهور المبهين في تاريخنا هو عهد حكم شارلس الثاني الذي أصبحت فيه كل الصور التي كانت شعراً قد اتخذها لنفسه سبيلاً في الافصاح أناشيد انتصار لقوة الملكية على الحرية والفضيلة . وقد وقف ملتون وحيداً يضيء عصراً غير جدير به . في مثل هذه العصور تطفئ النظرية العقلية على جميع صور الفن التمثيلي ويقف الشعر عن الافصاح عنها وتفقد المسلاة (comedy) عموميتها السامية (universality) والفحش الذي هو دائماً كفران بجمال الحياة المقدس يصبح خلال النقاب الذي يتخذه أقوى تأثيراً ، فهو وحش يلهتهم المجتمع المضطرب في غفلة . ولما كانت الدراما تلك الصورة التي تحفى تحتها عدداً عظيماً من طرق الافصاح في الشعر كانت الرابطة بين الشعر والخير الاجتماعي أكثر ظهوراً في الدراما منها في أي صورة أخرى .

ومن المسلم به أن أقصى ما تبلغه الجمعية الانسانية من الرقي يرتبط بأقصى ما يبلغه من المهارة في الفن التمثيلي . لذلك كان الخطاط أو اختفاء الدراما في عصر كان قد

ازدهرت فيه حيناً دليلاً على فساد الاخلاق وتلاشى الملكات التي تعول روح المجتمع البشري ، ويقول ما كيا في عن التعاليم السياسية بأن الحياة يمكن أن تحفظ وتحدد لو استطاع الناس أن يهبوا لإرجاع الدراما إلى أسسها وهذا صحيح ينطبق على الشعر في أقصى معناه فكل اللغات والتعاليم والاشكال لا يلزمها أن تظهر فقط ولكن يلزمها أن تستند على أساسها .

والحروب الداخلية التي اشتعلت في بلاد الاغريق والغنائم التي غنموها من آسيا وفوز المقدونيين عليهم أولاً ثم الرومان ثانياً كانت كلها أمثلة على خمود او عقم ملكة الانتاج فيهم إذ كان كتاب المرامي الذين وجدوا تشجيعاً من الحكام المتأدين في صقلية ومصر آخر من مثل ذلك المجد العظيم فشرعهم آية في الموسيقى كعبق الزنبق يغزو ويجهد الروح من فرط عذوبته بينما شعر العصر السالف كان كنسمات رياض الربيع التي تحمل في هبوبها عبق سائر أزهار الروض مشبعاً بروحها المعش الموسيقى الذي يهب الاحساس قوة تكسبه بهجته المفرطة وتري رقة في الاحساس مساوية لتلك في التأثير العواطف والاهواء في كتابات هريدوس وسوفوكليس ، فالأول على وجه خاص قد ألبس الصور الحية المهيجة للعواطف ثوباً جذاباً فريداً وأفضليتهما على من أتى بعدهما من الشعراء فوجد في هذه الافكار التي تتبع ملكات طبيعتنا الداخلية وليس غريباً أن تلك الافكار التي ترتبط بالخارجي منها واجادتها التي لا مثيل لها توجد في التوافق السكلي فهي ليست التي نجدتها عند الشعراء الغزليين ولكنها هي التي لا نجدتها عندهم وهي سبب حضورهم لا من حيث كونهم شعراء ولكن من حيث انهم لم يكونوا شعراء ويمكن أن يعتبروا على أي حال بأنهم قد افترنوا وعصرهم بفساد ولو كان هذا الفساد قد نجح في اخماد حماسة الشعور والعاطفة والجمال التي نسبت اليهم كنقيصة كان فوزه حماسياً لأن غاية فساد المجتمع القضاء على كل شعور بالجمال ومن هنا كان فساداً - فهو يبدأ عمله في الخيال والعقل باعتبارهما القلب ويوزع نفسه في صورة مم قتال في سائر الميول والأهواء حتى تصبح كلها عبئاً ثقيلاً فلا يمكن للعاطفة أن تحيا بعد ذلك .

وعند اقتراب مثل هذا العصر يخاطب الشعر تلك الملكات التي تكون آخر ما يناله الفساد فيستجاب صوته الشعر . يبعث دائماً ذلك السرور الذي يكون الناس على استعداد لقبوله فهو لا يفتأ نور الحياة ومصدر كل جمال وبطولة وصدق في عصر ملأه عليه الشر والفساد .

ويجب أن يقال إن أولئك الذين استمتعوا ببهجة شعر Thocritus دون Syracuse والاسكندرية المترفين كانوا أقل جوداً وأقل حيوانية وهمجية - ولكن الفساد لن يخذ أنفاس الشعر حتى يأتي على دولاب المجتمع الانساني أولاً ، إذ لن تنقسم حلقات تلك السلسلة المقدسة التي تسلسل من عقل الى عقل وارتبطت بعقول جبارة حتى يهبط عليها ذلك المجرى الدافق الخفي فيبعث الحياة والقوة في سائر أجزائها .

والشعر هو تلك الملكة faculty التي تحمل في داخلها في وقت واحد بذورها وبذور تجديد المجتمع . دعنا من تحديد آثار شعر العزليين وشعر الرعاة Bucolic في دوائر احساس من وجه اليهم فقد يكونون فهموا ما في تلك الآثار الخالدة من جمال وروعة فهمهم للمقتطفات والقصائد المتناثرة - أما أولئك الذين كانوا أرقى نظاماً في معيشتهم أو وجدوا في عصر أكثر رخاء فيعدونها أمثلة قوية لشعر جيد ، وقد وجدت تلك الثورات في أفق أضيق - مكانها في زوما القديمة ، ولكن مظاهر وأشكال الحياة الاجتماعية لا تدل على أنها أشربت تماماً لبان الشعر ويظهر أن الرومان يعتبرون اليونان أنهم أغلى الذخائر لأحسن صور الأخلاق والطبيعة . ويظهر أنهم قد استمتعوا عن الابتكار في تعبير قياسي - في النحت والموسيقى وفي البناء - وكل شيء يتصل بحياتهم الخاصة بين ما يتصل بالنظام العام للعالم ، ولكن ربما كان حكمنا هذا مستنداً على دليل جزئي وربما كان فيه كثير من التحيز والمحاباة . Accius, Paevius, Varro, Ennius كل أولئك كانوا شعراء عظاماً ولكنهم بادوا ، Lucretius مبتكر بأقصى ما تحمله تلك الكلمة من معنى وكذلك Virgil إلى درجة عظيمة جداً .

فالرقة البارعة التي اختارها الأخير للتعبير كالضباب الرقيق الذي يحجب عنا قوة وغزارة إدراكه للطبيعة والشعر عند Livy غريزة ولكن Ovid, Catullus, Horace وغيرهم من شعراء عصر فرجيل رأوا الانسان والطبيعة في مرآة اليونان .

كذلك التعاليم والدين عند الرومان كانت أقل شاعرية منها عند اليونان كالظل يبق دائماً أقل ظهوراً من الجسم ذاته فلذلك نرى الشعر عند الرومان يميل الى الظهور بعد - من أن يسعّب - انضوج السياسي ورقى سبل الحياة ، فشعر الرومان الحقيقي قد عاش في تعاليمهم ، وكل ماتوفر لديهم من جمال وروعة وصدق يظهر فقط في تلك الملكة التي تخلق النظام الذي يشملهم وان حياة Canillus وموت Regulus وانتظار أعضاء

السيناتو في مواكبهم الفاخرة والقواد الذين رجعوا من الغال مكللين بالظفر ورفضهم الجمهورية لتعقد الصلح مع هانيبال بعد موقعة كاناي لم تكن هذه دلائل نظام سليم يكفل للفرد سعادته في جميع مظاهر الحياة — في نظر أولئك الذين كانوا في وقت ما شعراء وممثلين لتلك الدرامات الخالدة — والخيال الذي شاهد جمال هذا النظام ، وكانت النتيجة قيام امبراطورية والثمرة شهرة خالدة — وهذه الاشياء ليست أقل شاعرية فهي مقدمة لتلك القصيدة الدائرة التي خطها الزمان في حوافظ الرجال . فالماضى كالقاصص الملهم يملأ مسرح الأجيال الخالدة بنغماتها المتوافقة .

وعلى ذلك فالنظام القديم للدين والاخلاق قد أتم ثوراته ، وإن العالم لابد واقع في فوضى وضلال شاملين ، ولكن قد وجد شعراء بين واصفي أنظمة المسيحية والقروسية في الأخلاق والدين فأوجدوا آراء وأحداثاً لم تكن معروفة من قبل أصبحت بعد أن رسخت في أذهان الناس مرشدة لجيوش أفكارهم الضالة . وإنه ليبعد عن غرضنا الآن أن نتلمس الشر الذي أوجدته تلك النظم إذا لم نعلم ولدينا البراهين الراسخة أن هذا الفساد لا يمكن أن يعزى إلى الشعر الذي يحوونه . ومن الجائز جداً أن شعر أيوب وموسى وداود وسليمان وأنشعيا كان له تأثير عظيم على عقل المسيح وتلاميذه فإن المقتطفات المتناثرة التي وصلت إلينا بأولئك الذين كتبوا تاريخ ذاته الإلهية كلها مفعمة بالشعر القوى ولكن يظهر أن تعاليمه شوّعت سريعاً .

والشعر في تعاليم يسوع المسيح وخرافات وتعاليم غزاة الدولة الرومانية من الكِلْت عاشت بعد الظلام والاضطراب اللذين اقترنا بظهورهم وانتصارهم امتزجت في صورة جديدة من الأخلاق والمعتقدات .

ومن الخطأ أن ننسب جهل العصور الوسطى « المظلمة » إلى التعاليم المسيحية أو إلى تغلب الشعوب الكلتية ، فكل ما كان هناك من شر في أفعالهم التي احتوتها والتي خلت من عنصر الشعر والتي ارتبطت بنمو الاستبداد والخزعبلات ، فأصبح الناس لأمور يتعذر شرحها هنا فاقدى الإحساس ومحبين لأنفسهم فقد ضعفت إرادتهم وكانوا مع ذلك عبيدها ثم عبيد الآخرين ، فالشهوة والجبن والبخل والقسوة والمكر قد صبغت قوماً لم يكن فيهم فرد زعيم بالابتكار في الشكل أو اللغة أو التعليم ، وهذا الشذوذ في أخلاق هذا المجتمع لا يمكن أن يلقى عدلاً على إحدى الحوادث المرتبطة به ارتباطاً مباشراً ، ومن سوء حظ أولئك الذين لا يستطيعون التمييز بين الكلام والأفكار أن كثيراً من هذا الشذوذ أدخل في ديننا العام .

وفي القرن الحادى عشر كانت آثار شعر المسيحيين ونظم الفروسية قد شرعت فى الظهور ، فنظرية المساواة عرفت وعلقت بواسطة أفلاطون فى جمهوريته كما أن القانون النظرى لذلك النظام الذى فيه عناصر اللذة والقوة التى جاءت بمهارة وفعل المحلوقات البشرية يجب أن يوزع بينها ، وقد أوصى هذا القانون بأن الحدود يجب أن تحد بآ حساس كل فرد أو بمنفعة الكل .

ولاتباع أفلاطون تعاليم : ففيناغورس قد أوجد نظاماً أخلاقياً عقلياً فى تعاليمه شاملاً فى نفس الوقت ماضى وحاضر ومستقبل حالة الانسان ، وجاء يسوع المسيح فأذاع للجنس البشرى الحقائق الإلهية الخالدة التى تضمنتها هذه الآراء وأصبحت المسيحية فى زبدتها التعبير الظاهرى للتعاليم الخفية لشعر القدماء .

والغاء الرق هو أساس أسمى أمل سياسى يمكن أن يتفهمه العقل وحرية النساء قد أوجدت الحب الجنسى وأصبح الحب ديناً فكان تماثيل أبولو وعرائس الشعر قد عاودتها الحياة والحركة فتمشت بين عابديها وعمرت الارض بسكان علم أسمى وأصبح المنظر المألوف وسير الحياة عجيبةً سماوياً وقامت جنة على أنقاض جنة عدن وكما أن هذه الخليقة نفسها هى الشعر لذلك كان موجودوها شعراء وأصبحت اللغة أداة للتفاهم . وقد سبق سكان بروفنس بترارك صاحب الأشعار الشبيهة بالرق التى تكشف عن أعماق ينبوع سحرى للسرور الذى يوجد فى ألم الحب . فحال أن نشعر بها دون أن نصير جزءاً من ذلك الجمال الذى نتأمله . ومن نافلة القول أن نشرح كيف أن رقة العقل ومحوه متصلة بتلك العواطف المقدسة تصير الناس الطف وأسمى وأعقل وتنقلهم من تلك السحب المتكاثفة فى عالم النفس الصغير . وقد فهم دانتي أسرار الحب أكثر من بترارك ، وروايته — Vita Nuova معين لا ينضب لصفاء الشعور ومحو اللغة فهى المثل الأعلى لتاريخ ذلك العصر وحياته التى كرسها للحب .

وإن تأليهه لحبيته بيتريس Beatrice فى الجنة وتطورات حبه وحسن حبيته الذى يتدرج به حتى يتخيل نفسه أنه صعد إلى عرش الخالق الأجد هو أسمى وأروع خيال فى الشعر الحديث .

فالجنة أنشودة خالدة للحب الأبدى والحب الذى وجد شاعراً جليلاً فى أفلاطون وحده دون سائر القدماء قد زفَّ بجوقة من المرنمين من أعظم الشعراء من العالم

الحديث وتغلغلت الموسيقى في صميم المجتمع ولا تزال أصدائها تفر من صليل الأسلحة وأصوات الخزعبلات . وفي الفترات المتعاقبة نشر اريستو وتاسو وشكسبير وسبنسر وكالدرن وروسو وسائر الشعراء العظام من عصرنا الخاص سلطان الحب وغرسوه في العقل البشري كما لو كان تذكار نصر وغلبة على الحيوانية والبطش .

أما شعر دانتي فيمكن أن يعتبر قنطرة قائمة على مجرى الزمن الذي يربط العالم الحديث بالعالم القديم ، وإن تلك التصورات المشوهة لتلك الأشياء الخفية التي سما بها إلى العلا دانتي وقرينه ملتون ما هي إلا مجرد نقاب ولباس يمشى فيها أولئك الشعراء في طريقهم إلى الأبدية ، وانها لمسألة عويصة شاقة تلك التي تتطلب تحديد مدى شعورهم بالفرق الذي لا بد أن يكون قد وجد في عقولهم بين عقائدهم الخاصة وعقائد الآخرين ، ويظهر أن دانتي رغب على الأقل في رسم نهاية ما بلغه منها بوضعه Riphæus في الجنة وانحيازه إلى طريق ضال في توزيعه الثواب والعقاب وقصيدة ملتون تتضمن رداً فلسفياً لذلك النظام الذي نتج عنه برهان قوى ساطع فما من شيء يسمو على تصوير الشيطان في البراعة والفخامة كما صور في الفردوس الضائع . ومن الخطأ أن نتوهم أن الغرض من وجوده كان لتصوير الشر المعروف ، فشيطان ملتون كمخلوق أخلاق يسمو إلى درجة خالقه .

وقد خالف ملتون العقيدة العامة - اذا اعتبر هذا تعدياً - بعدم إظهاره ربه في صورة أسمى من شيطانه ، وهذا الإهمال الشنيع لذلك الجانب الأخلاقي الظاهر هو أكبر دليل قاطع على سمو عبقرية ملتون . فقد مزج عناصر الطبيعة البشرية كما لو كانت موضوعاً على لوح المصور ورتبها في نظام صورته العظيمة تبعاً لقوانين القصص الصادقة أى تبعاً لقوانين تلك النظرية التي تضم سلسلة أحداث العالم الخارجي من المخلوقات الدكية الاخلاقية لتثير عطف الأجيال التالية على الانسان .

فالدرامة الآلهية والفردوس الضائع قد ألقيتا على الأساطير الحديثة صورة منظمة ، وعند ما يحين للزمان أن يضيف أسطورة جديدة لتلك التي ظهرت واندثرت ويتخذ المفسرون تفسيراً علمياً في شرح دين أوربا يحدون بعضه قد نسي وليس كله لأنه يكون قد طبع بطابع العبقرية الخالدة . وقد كان هومر أول شاعر قصصي وكان دانتي الثاني فارتبطت سلسلة مبتكرات الشاعر الثاني ارتباطاً مفهوماً بمعرفة شعور ودين العصر الذي عاش فيه والاجيال التي تلتها تابعة لها في رقيها ؟

نظمى خليل

(يتبع)

جون كيتس

(٢)

كان لا يزال بمدرسة مستر كلارك حينما توفيت أمه في شهر فبراير من عام ١٨١٠ م. وهو لم يعد الرابعة عشر بعد. . . وكان كثيراً ما يختبئ تحت القمطر، ويروح منطلقاً مع همومه باكياً. وعيّنت مسز جينجز (جدته لأمه) رولاند ساندل وربشارد آبي وصيين على كيتس واخوته، ووهبت لهما جانباً كبيراً من ثروتها.



جون كيتس

تصوير هلمثن في متحف الصور الأهلـى بلندن

وفي نهاية عام ١٨١٠ ترك شاعرنا المدرسة في تمام الخامسة عشرة من عمره ، وصار مساعداً للجراح توماس هاموند في إدمنتون على بعد ميلين من إنفيلد . يقول كلارك : « لقد رضى واقتنع بهذا المآل . فهو يقدر أن يخصص وقت فراغه من العمل في المستشفى للاطلاع والترجمة . وفعلاً أتم الاينيد وهو عند مستر هاموند .

وتنازع كيتس ومستر هاموند وأدنى النزاع إلى فرقتهما ، وفي عام ١٨١٤ توجه الشاعر الى لندن للدراسة في مستشفيات توماس وجاى . . وسكن أول الأمر فى المنزل رقم ٨ بشارع دين فى مدينة برّه ، ثم أقام بعد ذلك فى غرفٍ مع جورج ولّسون ما كيرث ، وهنرى ستيفن ، اللذين كانا يطلبان الطب مثله وستيفن هذا له فضل عظيم ، إذ أدلى بمعلومات قيمة عن الشاعر للورد هوجتون وسواه . ولقد كان كيتس موضع إهتمام اخوانه مدة الطب ، وكان يدهشهم بشعره ، وبملاّ كتبهم ودفاترهم بنظمه الرشيق . قال ستيفن : «لقد منعه تعلقه الشديد بالقريض من الإهتمام بغيره من الأمور ، كما عصمه من الخطيئة والإثم . »

وبالرغم من تعلقه بالشعر ، فالوثائق تقول لنا انه كان طالب طبّ موفقاً مثابراً قادراً ناجحاً ، ولقد كان فى مقدوره أن يشق سبيله إلى النبوغ كطبيب ، لو لم يكن يحفزه ذلك المؤثر القادر الغلاب . كان يحسن القيام بالعمليات الجراحية ، ولكن خياله كان يجسم له المصير المريع لو أخفق فى تأدية إحدى العمليات على الوجه الأكمل وكذلك كانت حياته الحقيقية بعيدة عن الدنيا الواقعية ، سارية فى حقول الخيال النائية متجنبه حقائق العلوم المكفّرة ، أجل . . أخذ شاعرنا يدنو رويداً من إلهة الشعر الخالدة إلى أن سلمها نفسه جميعاً آخر المطاف . ولم يعد بعد ابن إله الطب Aesculapius . ولقد كان لتعرفه إلى ليت هنت وهایدون مبدأ إشعال قوة خياله الجبارة ، التى كانت تنتظر الحافز والمنشط . وعند ما استكمل الحادية والعشرين من عمره تغلبت عليه وملكت جميع مشاعره فكرة الحياة الشاعرية الفنّانة الطليقة ، وفعلاً كان فى استطاعته أن يكسب رزقه من شعره وقلمه .

والذين شجعوه بادىء ذى بدء على المضى فى طريق الأدب واتخاذ الشعر حرفة له ، هم شارلس كلارك ، باعتباره المنقف الأول له ، وليت هنت ، ثم هايدون ، وهم لاشك ينتقد عليهم تغريبهم إياه وحرمانهم إياه دراسة الطب بحضهم المتواصل على سلوك مدقّ الأدب الشائك المتلوى .

ومن بين أصدقاء حديثه : جورج ماثيو ، ويليام هازلام ، جوسف سيفرن ، شارلس ولز . أما ماثيو فلم يكن معروفاً للناس ، بيد أن أسرته كانت تحترف التجارة وكان يظهر الصّكرم والحفاوة بالشاعر ، حتى أن كيتس وجّه إليه بعض قصائده الأولى ولما كتب ماثيو إلى اللورد هوجتون عام ١٨٤٨ ذكر يانه عن الشاعر ، قال :

« كان موضعاً احتياطياً يكافح وبجهد في سبيل الحصول على مرتب ضئيل جداً ، ليسد به عوز أسرة مكونة من اثني عشر طفلاً . وبالرغم من أنني كنت مساوياً لكيتس في العمر ، ومن أننا علقتنا بالآداب معاً ، فقد كنا مختلف من بعض الوجوه كما يجب أن يختلف شخص عن آخر . كان يتمتع بصحة جيدة ، بحيوية متدفقة . وكان مولعاً بالمجتمعات لا يكاد يطبق العزلة ، يتمتع نفسه بكل لذائذ الحياة . كثير النقة بنفسه . أما أنا فكنت على نقیضه ، محطم الروح ، متجهم الصدر حزیناً أمیل الى الراحة والخلو ، أكثر التأمل والتفكير على خلاف من كانوا في سنى . وكان كيتس كذلك من أبناء المدرسة الجمهورية : كثير الدفاع عن الافكار الجديدة التي أخذت تزدهر في عصره . كثير التقيب والبحث عن العيوب والقائص ، هداماً لكل قاعدة سائرة ، في حين كنت أكره التجديد ، وأمقت الاضطراب والخروج على النظام . . . وكان شديد الولوع بالترابق والخاف : عظيم النزوع إلى البهرج المطرز . وكان يتهيج إذ يقودك بين رياض وصفه البارعة ، ولكنه لم يكن ليفطن كثيراً الى السمو ولم يكن يعنى بتجريك العواطف ، وكان معتاداً إتفاق أماس طويلة في القراءة معى ، بيد أنني كنت لا ألاحظ في نبراته تهديجاً وانجماشاً ، ولا كنت أظفر من عنبیه بدمعة تدلى على مبلغ حساسيته وتأثره بما كان يتلوه على .

أما ولیم هازلأم ، فرجل ربما كان قد كتب لأسمه الالهال والنسيان لسوء الطالع أو لحسنه قل ما تشاء — لولا أن اسمه تردد مراراً في رسائل الشاعر ، وفي الوثائق الأخرى ، ولكنه على كل حال يمتاز بأنه واسطة التعارف بين الشاعر وجوزيف سيفرن الذى كان لا يزال في تلك الاثناء شاباً يجاهد في سبيل الطموح والسمو بالفن ، وسرعان ما رأى في شاعرنا النموذج الذى رسمه في خياله للشاعرية الفسدة . وهكذا خلق كيتس حوله جواً من الانصار والأحباب والمعجبين يلهجون بنبوغه وعبقريته ، قبل أن يقدم العمل الفنى المئين الذى يبرهن منطقياً على ذلك النبوغ وتلك العبقرية .

وشاذر ويلز كان زميلاً لتوم كيتس أثناء الطلب في إدمونتون وكان يعيش في تلك الاثناء مع أسرته في هولبورن . وقد ذكره الشاعر في أغنية بمناسبة إهدائه باقة زهر .

ومن أمتع الشخصيات المتعلقة بحياة شاعرنا ، شخصية جورجانيا اوجستا وبلى حبيبة جورج كيتس وكان الشاعر يشجع شقيقه على المضى في غرامه ، ويساعده جدياً

وصور حُبّه في قصائد رائعة زفّها إليها ، منها المقطوعة الرائعة « فالتين »
التي يقول فيها : —

« لو كنت عشت في العصور الغابرة ، فها هي تلك الصور العجيبة التي كانت تقص
علينا جمالك الحى » ، وتصور عينيك الزئبقيتين اللتين تتراقضان وسط جورٍ من
البريق المذهل في بهر الضياء ، وضجة الأضواء ! »

.. أجل .. عيناك .. اللتان تحميهما الأهداب متعطفة .. راسمة كل معنى
سحريّ محبوب .. »

ولقد ذكرت مسز أوبن في كتابها « دراسة عن جون كيتس » أن تأثير هذه
الفتاة جورجانيا في الشاعر كان عظيماً ، وذلك راجع لاتصاله بالفتاة الفتانة ، ثم أدلت
بنقطة هامة هي : « لاشك أن هذه الفتاة الصغيرة ، زوجة شقيقه ، كانت منبعاً
صافياً بريئاً من المنابع العلوية التي استمد منها الشاعر صورة أنديمون ، وعبثاً نحاول
تجاهل ظلال النموذج الرفيع المترأى بين سطور هذه الصفحات ، فإن براءة العلاقات
التي نشأت بين أنديمون وبيونا ، لا بدّ جاءت نتيجة لهذا التأثير المغبوط .. »

لست أدى كيف كان شاعرنا يجذب الناس اليه ، ويعطف قلوبهم نحوه لأول
وهلة ، ولكن لنسمع (ليت هنت) يصرح لنا بذكرياته عن أول لقاء قام بينها :
« اننى مدين لمستر كلارك الذى عرفنى الى الشاعر ، ولن أقوى ماحييت على إزالة الطابع
الذى ارتسم بذهنى عند ذلك اللقاء ، فلقد لحت بريق العبقرية الأصلية الحية في
في الوجه المائل أمامى ، كما توسمت بخايل النبوغ وتباشير الشهرة . ثم أصبحنا صديقين
فألفيت قلب الشاعر متحمساً فياضاً كخياله . فكنا نقرأ سوياً ونخرج للنزهة سوياً
كما كنا ننفق الاماسى في نظم الاشعار في موضوع معين .. لم نكن نغفل لذة خيالية
ولا نهمل منبعاً للوحى والقريض دون أن نتلهى به . فن ذكريات الصور الدراسية
والتماذج العتيقة ، الى وصف جمال الإفطار في فصل الصيف ، الى ملاحظة اشتعال
الجر في مواقد الشتاء ، ثم حدث أن قرأت أشعار صديقي بعد زمن قليل على
جودوين ، هازليت ، باسيل ، مونتاج فصرح الجميع بأنها قصائد مدهشة رائعة ،
وما كنت أنا نفسى أحسبها كذلك .

وكانت احدى هذه القصائد أغنية عن أول قراءة لهوميير ، وهى قصيدة وضّحت
قوته وهدوؤه وأعلنت تماماً أن شاعرآ جديداً يأخذ مكانه تحت الشمس .



جوزف كيتس — من رسم جوزف سيفرن

لم يذهب تأثير كيتس على هنت وسواه من الصحاب ، ولقد كان هنت يميل الى التحدث كالأخرين عن مظهره وهياته ، وهكذا راح يقول : —

« كانت قامته أكثر من المتوسط ، بيد أنه كان أنيقاً وجبهاً . وكانت عريض الكتفين بحيث لم يكونا متناسبين مع حجمه . وكان له وجه تبرز فيه القوة بالحساسية امتزاجاً بعيداً ، قوة متوفزة كسرت من شررتها الامراض والعلل . كان متناسق الملامح رشيقيها ، طويل الوجه ، شفته العليا ناتئة قليلا عن السفلى . وصلابته وشجاعته متمثلتين في ذقنه ، غائر الخدين ، متسألقي العينين . وكان اذا استناره مؤثر نبيل ، جاشت الدموع بعينييه المعبرتين ، وارتجفت شفاته وأربدتا »

. لم تكن الأعمال الشعرية الأولى التي قدمها الشاعر شعراً بالمعنى الصحيح ، وإنما كانت محاولات مشكورة . وفي عصر الانتقال يلاحظ الانسان الشاعر الذي يطمح الى شق طريقه الفني يكثر من المحاولات . . . ومع ذلك فقد كان هنالك قس من الایحاء القدی يواتيه بين الفينة الفينة في هذا العهد الأول ، كما في مقطوعته « أول

قراءة لهومير» التي سبق أن عرضنا لها . وعند ما امتزج برجال العلم أمثال جون هاملتون ، رينولدز ، ويب ، هوارس سميث ، شيللى ، ووردزورث ابتدأت شخصيته كشاعر تقوى وتنضج ، حتى انه في تلك الاثناء اعترم طبع المجموعة الأولى من شعره بعد أن أتم قطعة ممتازة من الشعر النقدي أسماها «النوم والشعر» كتبها عقب نومه في كوخ هنت في هيث . وفي مارس ١٨١٧ ظهر للناس الجزء الاول من ديوان الشاعر ، أصدره شارلس وجيمس أولير ، وكانا حديثي العهد بنشر الكتب ، وصارا فيما بعد ناشري شيللى . ولم يقو الكتاب الصغير على جذب الأنظار اليه ، ولو أن هنت أحسن التعليق عليه في Examiner وما كان هذا الفصل المبدئي ، ليحطم آمال الشاعر الشاب ، بل ويقال انه تبارى مع شيللى في ميدان القريض ، أن يكتب شيللى Laon & Cythna ويكتب كيتس (أنديميون) ، على أمل معرفة من منها ينجز عمله قبل الآخر .

وفي ١٤ ابريل عام ١٨١٧ ، رجاه أخوانه واشترك هيدون معهم في الرجاء ، أن يبارح لندن لينفرد بنفسه عساه يصلح شعره — حتى أنه لم يقبل دعوة شيللى التي وجهها اليه قاصداً أن يتكرم عليه بتمضية أيام معه في (مارلو) ، كما يكون بعزل عن كل ما عساه أن يشغله ويلهبه عن عمله الفني . واتفق في أواخر ابريل أولير مع جورج كيتس شقيق الشاعر على التنحي عن استمرار نشر هذه المجموعة الشعرية الصغيرة وابتدأ كيتس ينظم (انديميون) في كاريسرووك بحجزيرة (وايت) وفي (مارجریت) ثم في كانتبوري ، وكان أخوه توم بجانبه أثناء إقامته في (مارجریت) و (كانتبوري) ، ولكنه بعد أن بلغته من شقيقه جورج خطابات كثيرة تتعلق بمسائل مالية ، رجع ومعه أخوه إلى لندن ، واتخذ له سكناً في هابستيد . وكان جورج في تلك المدة خالياً من العمل ، كما أن توم كان عاجزاً عن مزاولة أية حرفة ، فكان المال يعوزهم جميعاً ، فأسرع كيتس في الاتفاق مع الناشرين على (انديميون) ، وتناول منهم شيئاً من المال قبل طبعها .

وراح يعمل في (انديميون) صيف ذلك العام ، وقامت الصداقة فيما بينه وبين شارلس ديلك وشارل براون ، وكانا يسكنان منزلاً منعزلاً في الحى الذي كان يسكنه . وكان رينولدز هو واسطة التعارف الطيب — كان ديلك حينئذ في التاسعة والعشرين من عمره ، يعمل كاتباً في مصلحة البحرية ، بيد أنه كان شديد التعلق بالأدب — أما براون ، فكان في الحادية والثلاثين ، رفيقاً طيباً ، له آثار أدبية ،

وقد أصاب ٥٠٠ جنيه بكتابه (أوبرا) ناجحة في موضوع روسي. وكان كل من الرجلين مختلفاً عن كيتس كلياً، بل ويختلف أحدهما عن رفيقه كذلك. وصديق ثالث قدمه إليه رينولدز كذلك، هو بنيامين بيللي، الذي كان يقرأ في كنيسة (اكسفورد)، وثمة صديق رابع، يجب أن نذكر اسمه هنا وهو جيمس رايس. وفي أثناء ذلك الصيف توجه توم وجورج كيتس إلى باريس متزهين في حين ذهب الشاعر إلى اكسفورد ليقوم إلى جوار (بيللي) مدة العطلة الطويلة وواظب في اكسفورد على نظم (الانديميون)، وفرغ من الجزء الثالث، وكتب رسائل مرحلة سعيدة إلى شقيقته فاني التي كانت بعيدة عنه صحبة مستر آبي الوصي عليهم، وإلى جين، وماريان رينولدز، شقيقتي صديقه، واللتين أصبحتا فيما بعد مسز توماس هود ومسز جرين. وعاد كيتس إلى هامبستيد في أكتوبر سنة ١٨١٧، وكان هيدون وهنت متنازعين متخاصمين، كما تشاجر هيدون مع رينولدز، وراح هيدون يحذر كيتس من صحبة هنت، وأوصاه أن يخفى عنه شعره، لأنه إن فعل فقد يشطب له هنت نصف ما ينظمه ولكن كيتس لم يزل متعلقاً بهنت رغم استهجانه بعض تصرفاته الشاذة، بل وعرف كيف يدحض حجج هيدون المُفْرِضَة. وتوجه الشاعر في الخريف إلى (بورفورد بريدج) حيث أنهى (الانديميون) وبعد عودته إلى هامبستيد في فصل الشتاء راجع القصيد مرة أخرى، ونقده وهذبه فنياً، ونظم بعض أشعار أخرى صغيرة وحدث في تلك المدة أن مرض توم مرضاً فظيعاً (بذات الرئة)، فذهب به جورج في الشتاء إلى (تاينموث) كما نصح الأطباء.

وقامت مشكلة أخرى: هي أن جورج اغتزم الزواج من جورجانيا وعقد نيته على الهجرة إلى أمريكا، وكان توم قد تحسنت صحته بعض الشيء من جراء جفاف جو الجنوب، وسافر كيتس إلى الجنوب من أجل هذا الغرض كذلك، وكانت (الانديميون) قد تم طبعها، ومقدمتها على وشك الانتهاء، وكذلك كان قد أنهى (إيزابيلا) وبعض مقطوعات صغيرة أخرى من أحسنها ما كتبه إلى رينولدز.

وأخذت حالة الأسرة تظلم منذ ذلك التاريخ، بل أخذ جون كيتس يهمل العناية بصحته. كان يخامره داء دفين رغم مظهره القوي. والحق أنه كاد لا يعبأ بصحته وقوته، وكاد جورج يعرف ذلك تمام المعرفة، وهو لم يفكر في الهجرة من أجل مصلحته الخاصة فقط، بل كان يسعى إليها كما يكون بعيداً عن أخيه الذي كان

يعتمد عليه في انجاز حاجياته كلما احتاج الى المال ، وكثيراً ما كان يحتاج اليه ... وقبلت مس ويللى الاقتران من جورج الشجاع ، حينما عاد كيتس بشقيقه المريض نوم الى لندن مايو ١٨١٨ م .

وفي الوقت الذى اعترم فيه جورج كيتس الهجرة بزوجه الى امريكا ، حدث حادث مؤثر في حياة أسرة كيتس : ذلك أن براون وكيتس اعتزما القيام برحلة مشياً على الأقدام فى اسكتلندة تاركين نوم المسكين فى (ويل والك) وسافر جورج وعقبته الى ليفربول ، وودّعهما اليها جون وبراون ، وأبحر جورج وزوجه ، وعاد الآخران الى لانكستر وقد سجل كيتس حوادث هذه الرحلة الممتعة فى خطاباتة الحية الجميلة . وتقدما من (لانكستر) الى (ويندير ميرليك) وكانت رحلة جميلة حقاً لولا أن كيتس أصابه برد شديد ثقل على صدره واضطره الى وقف رحلته . يقول براون : « ستركنى مستر كيتس هنا وحيداً وأنا لذلك جد حزين . هو عاجز عن السير معى إذ أصابه برد شديد فى صدره يضطره الى السفر العاجل الى لندن . لقد تبديلت صحته وآصت حيويته هشياً ، ونجبرنا الطبيب هنا أنه لن يشفى من مرضه الخبيث لو استمر فى رحلته على قدميه معرضاً ذاته لهذه الأجواء العاتية » . ويقول فى خطاب آخر « لقد أصابه برد شديد فى جزيرة (ملّ) تركه فى حال يرثى لها . ويعتقد الطبيب هنا أنه أضعف من أن يتابع الرحلة . ان هذا فشل قاسٍ لنا . فلقد كنا سعيدين باجتماعنا معاً . وأسفاه ! سأجوب أنحاء اسكتلندة وحيداً ! ولكن آلامى لا تقاس بآلامه ، فأننى وان كنت أفقد صحبته وهى خسارة جسيمة الا أنه سيحرم رؤية هذا الاقليم » .

ولقد كانت حالة شقيقه نوم مما يدعوه الى الاسراع فى العودة الى لندن ، وحينما وصل نهر التيمس فى ١٨ أغسطس وبلغ هامبستيد ، كان فى حاجة قصوى الى من يرعاه ويقوم على حراسته هو الآخر . ووصفته مسز ويلك عند ما أبصرته فى أوبته قائلة « كان شاحباً شحوباً مخيفاً ، ممزق الثياب والحذاء .. الخ »

وراح شاعرنا ينشد العمل الأدبى البحت فى معاهده القديمة ، ولكنه هوجم من Blackwood's Magazine التى سبته فى مقالة سافلة ، وكذلك كتبت Quarterly Review نقداً ساقطة ، ولسنا بحاجة الى القول انه لم يعن بهذه المهاجمات ولم يقم لها وزناً ولا اعتباراً ، بل كان يحتقر سفالة Wilson وقاذورات من يكتب بدون إمضاء صريح فى مجلة Quarterly Review وعلاوة على ذلك فقد كان مبلبل

الذهن من جراء سوء صحة أخيه توم ، بيد أنه كان رجلاً بما في الكلمة من معنى ، ويقول عنه شقيقه جورج : « ليس جوت سوى روح الشجاعة والرجولة الحقة ! » .

ويقول أحد أصدقاء كيتس الذين تعرف اليهم أخيراً بعد المهاجمات الكثيرة التي جابهها من الصحف ، وهو يدعى ريان وول بروكتر ، في الترجمة التي كتبها عام ١٨٧٧ : « عندى القليل أسرده عن كيتس : رأيته مرتين أو ثلاث قبيل سفره الى ايطاليا . قدمنى اليه هنت ، فوجدته كثير اللطف جَمَّ الوداد ، خالياً من الصلف أو التصنع في آرائه وطباعه . من النادر أن ترى رجلاً في مثل شئائله وجماله . كان على استعداد دائم للصغاء لكل حديث ، وللإجابة عن كل سؤال ، كان على أهبة تامة للنقاش والمحااجة ، والظهر بالرأى ، والانغماس في الاحاديث العنيفة المخرجة والمسائل العامة . وقد قيل أن شعره تنقصه النحولة والرجولة ، وأشهد اننى لم أر شاباً أكثر ، منه رجولة وصلابة . . »

ولقد ذكرت أرسلت بروكتر في تصريح واضح لها انها تأثرت كثيراً بعيون الشاعر التي كانت تحسبها تشخص في جلال الى منظر سام . . »

وفي أول ديسمبر حانت منية توم المسكين - في الليل - وترك كيتس غرفة الموت وطير البأ الى براون ، وقد سجل براون هذه الزيارة في قوله : « استيقظت بكرة يوم من الايام على أثر ضغط على يدي . لقد كان كيتس جاء يخبرنى بأن أخاه قد انتهى . لم أحر جواباً ومكثنا برهة صامتين ، وعينى تنظر فى عينه . وسرعان ما انتقلت خواطرى من الميت الى الحي » ، قلت : ألا تبق بعد الآن في هذه الحجرات منفرداً هكذا . . ! ألا تقبل أن تعيش وإياي ؟ فتنهد وضغط يدي بحرارة ، ثم أجاب : (أظن من الافضل أن أفعل ذلك ... ومنذ ذلك اللحظة لم نفرق » .

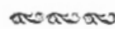
وابتداً كيتس فى هيبيريون بجانب فراش الشقيق العليل ، وشرع ينظمها فى مبدأ علاقته ببراون ، ولكن أعصابه لم تهدأ منذ وفاة أخيه الذى كان يكاد يعبده . وخير من يصف لنا حزنه الفاجع فى تلك الاثناء هو صديقه ديلك فقد جرى أرنب ذات يوم فى حديقة ويفتورث فاصطاده ديلك ، فظن كيتس أن هذا الأرنب ليس سوى روح توم ! وهكذا كان يقول ويتخيل فى كل مواقفه الهاجسة !

ولما أسى الدهر جراحه ، وألسته الأيام آلام فقد الشقيق ، عاد الى فنه يهبه روحه

وكيانه ، ولكن مأساة بالغة كانت تفتظره لتفسد عليه الحياة : تلك انه قابل عند جاره مستر ديلك مسز براين وكريمتهما فاني التي لم يكن الشاعر يحبها أول الأمر ولكنه سرعان ما أصبح مولعاً بها مشغولاً بحسنها . حاول أن يقنع نفسه بأنه لا يحبها ، ولكنه على النقيض ما كان إلا ليزيد النار اشتعالاً .. لقد ملكت عليه كل نهاء ، وقيدت قوته الطليقة الطافرة . ولم يقصر عمله الفني على هيبيرون فحسب ، بل أخذ يكتب أول الشتاء حواء سنت أجن وعند انصرام يناير سنة ١٨١٩ وهو يزور مع براون ، والد ديلك في شيشيستر ، ومستر ومسز سنوك في بيد هامبتون ومسز سنوك هي شقيقة ديلك — ابتدأ شاعرنا نظم قطعة النادرة (حواء سنت مارك) .

وعاد مرة أخرى الى وينورث في فبراير ، وعندئذ ذاع حبه لفاني وأعلنت خطبتهما ، تقول الفتاة : « لقد كان لمرضه المبالغت وعودته المفاجعة من رحلة في اسكتلندة ثم لموت شقيقه توم أكبر الأثر في نفسي ، مما دفعني إلى الاتصال به والاشفاق عليه . كنا نتقابل على الدوام في منزل صديقه ، ولكنني لم ألحظ عليه في ذلك الوقت ولا بعده أى معنى من معاني البث والشكاية . لقد كانت رجولته كاملة عجيبة ، وكان تحمله وتصبره غريباً ، كما كان سامى الخلق ، اللهم الا حينما يرى المرض يطغى على شقيقه توم ، فقد كان ينقلب عند ذلك نمرأ متوحشاً » .

مختار الوكيل



زعما الرومانيسم

لامرتين

(١)

قال أحد جهابذة النقد في عرض كلامه عن لامرتين :

« إن لامرتين لا كثر من شاعر — إنه الشعر نفسه »

ولعمر الحق إن لامرتين هو الشعر بكل ما في كلمة الشعر من معاني ، بل هو كل ما في الشعر من حسن جميل — وإذا كان أحسن ما في الشعر الحلم بعوالم الجمال

والكمال والمثل الروحية العالية ، والارتفاع بالعواطف والأشواق إلى أخلص وأطهر ما تكون عليه في القلب البشري ، فان لامرتين كان هذا ، وكان شاعراً عظيماً في كل هذا — فقد جال وحى عبقريته في كل الميادين ، ورددت قيثارته كل النغم التي كثيراً ما كانت ذات نبرات حزينة كئيبة ، ولكن رفيعة سامية — وكانت روحه التي لا تنضب تكسو كل حادث عاды أو واقعة عارضة ثوباً من الجلال ، وتسبغ عليه فضل أمثلته الرفيعة وروحانيته المشعة في كل آثاره .



لامرتين

ذلك ان لامرتين كان روحياً بآتم معنى الكلمة، حتى قيل إنه لم يكن رجل مثله لا يرى من الحياة الا جانبها الجميل ، وانه يرتفع بطبعه الى التأمل الروحي حتى ليرى ديمومة الجمال في الحياة ، وانتصاره في آخر الأمر على ما عداه . . . وانه لم يأت في فرنسا ممن يشاركه في هذه الخلة منذ أفلاطون — فهو يعيش في حلم دائم بالجمال ويعجب به في نفسه وفي شخصه ، وفي فكره وقلبه ، ويعجب به في الطبيعة التي يراها دوماً جميلة ساحرة ، وفي الانسانية التي لا يرى إلا رهوسها المكللة بالكالييل الفار — وهو إذا تحدث عن بلاده وعن الانسانية وعن الاله يجعل ذلك الحديث كلفاً ثم يجعل ما يكلف به ديناً له ما للدين من هبة وجلالة — وأنظر إلى قصائده الموسومة بالنغمات Les harmonies أنها ليست استدلالاً فيلسوف عن وجود واجب الوجود ، ولا هي تأملات متصوّف ، وإنما هي ارتفاعات وتنقلات من محاسن الطبيعة البادية إلى المحاسن المطلقة التي هي الله ، وهي أشواق غريزية لروح تراها تصعد من أسفل درجة في سلم الجمال إلى أعلاها . وانه ليخيل اليك

وأنت تقرأ شعره أن الشر والقبح لا يوجدان في الكون . ولم يتناول لامرتين مسألة الشر إلا في قصيدة « اليأس » ولكنه يظهر من هاته القصيدة ومن كتابة سقطلة ملاك أنه غير بارع في تصويرها لأنه غير قادر على تصوّرها .

على انه وإن كان يعيش في حلم لا ينسى مع ذلك الواقع فهو كما قال : « ظامئ الى العمل ومولود الى العمل » . ألازى أن هذا الشاعر الحالم استطاع أن يكون سياسياً ماهراً وخطيباً شعبياً، ثم لما تحطمت الحوادث السياسية يرجع الى سكون وعزلته راضياً قانعاً بالعمل الشاق الذي فرضته عليه الأيام في شيخوخته ^(١) .

ولم يكن لامرتين يتخذ الأدب صناعيه فقد قال « إن الشعر ليس بصناعتى ولكن حادث عارض ومناسبة سعيدة وحظ جميل أتيج لى في حياتى » ويعترف أن لاصبر له على التنقيح والتهديب لشعره ، بل كانت تنبعث فيه الرغبة للقول فاذا قلبه يملئ وقلمه يطيع .

وشعر لامرتين موسيقى ذائبة لطيفة عذبة ، وربما ارتفع من النشيد العذب الملائكى الى الشعر الفخم القوى الصاحب إذا دعتة قوة الاندفاعات الدافقة من روحه الجياشة ، فيضيف حينئذ الى قيثارته الرقيقة وترأ نحاسياً .

والعادة التى يستعد منها لامرتين لحمة قصائده هى الحب الذى يجعل منه موضوعاً للتأمل والذهول الصوفى ، والألم الذى تجد فيه كآبته الطبيعية مجالاً ومراحاً ، والطبيعة التى تسليه ، والايمان الذى يكون منه مخلوقاً متمثلاً لارادة الله متغنياً بمجده وحمده وشعره فى جملة عاطفة لكنها معقدة بعض التعقيد فهى متطهرة ملتبهة إذا تكلمت عن عظمة الحب وشقاوته ، وهى متمطشة الى اليقين ظامئة الى الطمانينة مليئة بالخيرة إذا تحدثت عن الطبيعة والموت والاله . وكل شعره مكتوب بلهجة مؤثرة وأسلوب موسيقى يلاطف الروح ويهددها ويبعث فيها أصدية لانهاية لها .

(١) انتخب نائباً سنة ١٨٣٣ م . ثم ترشح لرئاسة الجمهورية فظهر عليه لويس نابليون وانقلب نظام الحكومة الى امبراطورية سنة ١٨٥١ فاعتزل السياسة . وافتقر في شيخوخته لأنه كان جواداً متلافاً وفدحته أعباء الدين فعمل خمسة عشر عاماً عمل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ليتخلص من دينه ومدت له الحكومة يد المعونة فلم يتمتع بذلك إلا عامين وتوفى سنة ١٨٦٩ وانظر تفصيل سيرته فى رفايل ترجمة الزيات .

شعره الغزلي

ذلك ما يُقال على الإجمال في لامرئين الشاعر . ولكنَّ الباحث في أدبه لا بدَّ له من وقْفَةٍ خاصَّةٍ في شعره الغزلي والفلسفي إذْ كان هذان الغرضان بما غلب عليه وجالت فيه عبقريته جولاتٍ دائمة .

كان لامرئين شاعراً غزلاً من أبدع شعراء الغزل في اللغة الفرنسية .

وكان غزله نوعاً جديداً لم يرَ الناس مثله في ذلك العصر ، فقد عيل صبرُهم من غزل القرن الثامن عشر الميت ونسيبهم المتهتك ، وخابَ ظَنُّهم في شعراءَ ظهوروا قُبيل لامرئين : ذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يتخطَّوا عصرهم ويتخلَّصوا كلَّ التَّخلص من تلك الجفَاءة القديمة والركَّة الموروثة .

فلما ظهر لامرئين جاء في الغزل بشيءٍ يُشبه الخيال الافلاطوني ، والاحلام السَّاهمة والجمال المنقَّب ، ومزجَ ذلك بشيءٍ من الحسن الكسول ، واللفظ النَّاعم .

وقد تيسَّرَ له من أداة الغزل هذه الرغبة البريئة التي تدفع صاحبها الى التحدُّث عن هزَّات قلبه وانفعالاته ، ثم الرغبة في صوغ هاته الانفعالات في كلامٍ صادق لا مؤاربة فيه ولا كذب أو تلاعب ، ثم مزية الإدراك البديهي الذي يقدر به صاحبه على التمييز بين مختلف الهزَّات والانفعالات واختيارِ أنبلها وأشعلِها وأجدرَها بالخلود ، ثم أخيراً هذا الذوق الفني الذي يلين من جفاء تلك الانفعالات ويلطف من جوحها ، ويخرج منها ما يشوه محاسنها عند التعبير والاداء ومن اجتماع هاته المزايا في لامرئين ومزايا أخرى صدرت قصائده الغزلية الباقية على الدهر ما بقي في الناس قلوبٌ خافقة .

هذه القصائد كانت كلها تعبيراً عاطفياً مصَّغى ما أمكن من الحوادث والوقائع والأسباب التي كوَّنته أو أوحَتْ به لقريحة الشاعر . وهذا التطهير أو التصفية كانت طبيعة في لامرئين فهو كما قيل الشعر نفسه . ومتى كان الشعر مطالباً بدقة التَّاريخ وتحليل الفلسفة ؟ بل إنَّ وظيفة الشعر هي بعث الاصداء في النفس ، وإهاجة العواطف ، وإثارة الشعور ، وترك الأثر واضحاً مردِّداً في روح القارئ . وهذا ما كان يتركه شعر لامرئين في أنفُس قرائه .

أنظر الى قصيدة «الوحدة» فليس هناك أثر للظروف أو الأسباب التي كانت سبب
كتابة الشاعر ووحشة نفسه ، فالشاعر يذكر فيها غابات وأنهاراً ، وجبالاً وأحجاراً ،
وكنيسةً وصلاةً ، وغدوً وأصلاً ، ولكنه لا يقول لنا أين موضع هذا : أفي
الكون كله ؟ لا جواب . وإنما يقول :

« أيها الأنهار والأحجار والغابات والخلوات العزيزة على »
« إن غيبة مخلوق واحد من ربوعكن جعل عامركن خراباً »
« ورداً أنسكن وحشة »

من هو هذا المخلوق ؟ وبأي خيط يتصل بروح الشاعر ؟ وعبناً نقساء فالشاعر
لا يرى ما في نفسه ولا مما في خارج نفسه سوى بأسه العميق وشوقه المبهم إلى
مكان مجهول الإسم :

« سواءً على أنطلع الشمس أم تغرب »
« وتصحو السماء أم تغيم ، ويظلم الليل »
« أم ينير الصبح ، فليس لي بغية في اليوم »
« ولا رجية في الغد »

« وحينما ارسل عيني تتبعان الشمس »
« في مدارها الرحب القصى لا أنظر في كل مكان »
« غير الفراغ والخلو لا حاجة لي إلى من تظله »
« السماء ، ولا رغبة لي فيما تُنيره الأرض (١) »

هذا كل ما نعرف من سبب كتابته ولكن هذا الابهام كافٍ إذا كانت الكتابة
الممضّة والشعور بالفراغ الهائل والوحدة الالئمة يراد تصويرها كما هي في النفس
غامضةً مبهمّة . وانظر بعد ذلك إلى قصيدته «الوادي» فليس فيها ما يدل على المؤثر
الأدبي الذي أدعى الشاعر الى تلك الحالة الفكرية المصورة في هذه القصيدة والتي
يقول فيها :

« لقد رأيتُ كثيراً ، وأحسستُ كثيراً ، وأحببتُ في حياتي كثيراً »

فالتعبيرُ عن النَّصب الذي أحسنت به روحٌ كثيراً ما تحركت واضطربت وتصادمت فيها العواطف المختلفة ، والتعبير عن الشعور بالراحة الكبرى التي تجدها عقب ذلك النَّصب ، ثم التعبير عن هذا الصمت الداخلي الذي يشعر به الكيان كله حين ينكمش على نفسه ويريد أن ينسى ذلك الصب والغبوب . . هذا هو الصعب ، وهذا هو الذي تُنفدونه الكلمات حائرة عاجزة لا تُنْهال تفلح في أدائه على التحقيق ولا تصل إلى الغوص على كنهه . ولكن انظر إلى الشاعر كيف يؤدِّيه ويعبر عنه بطريقة المبهمة التي تترك في النفس أثراً مبهماً يوازي إبهام المعنى الذي تشعر به وتعجز عن حدِّه أو مسكه من يده .

قال لامرئين :

« إنَّ قلبي لفي راحة ، وإنَّ نفسي لفي صمت »

« وأنَّ ضجة العالم القصبة لتضعف حين تصل إلى »

« فهي كصوت ناءٍ أخفته طولُ المسافة »

« ثم حملته الريحُ إلى آذانٍ موقورة »

« من هنا أرى الحياة خلال سحابة تتضاءل أمامي »

« وتتلأشى في ظلال الماضي والحب وحده »

« بقي لي كما تبقى الصورة البارزة »

« من حلم الليل عند يقظة الصباح »

« استريح يـا نفسُ في هذا الملجأ الباقي »

« كما يستريح ابن السبيل الملىء القلب بالأمل »

« حين يجلس عند أبواب المدينة (قبل أن يدخلها) ، »

« مستنشقا هنيئةً نسيمات الماء الشذبة »

« لننفذ مثله التراب عن أرجلنا »

« فلا رجعة للإنسان من ذلك الطريق »

« لنستمتع مثله في نهاية وُحْدنا »

« بهذا السكون المبشر بالسلام الابدي »

هكذا عبّر لامتريين عن كل هذه المعاني الغامضة، وهكذا يوفق كل مرة توفيقاً عجيباً، وهكذا تجدد أغلب قصائده غارقة في ضباب رقيق، ملفوفة في نقاب شفاف منبعثة عن أثر تركته في النفس إحدى المشاهدات

فاذا حدثك عن ذلك ترك في نفسك أثراً مبهاً كالذي أحس به : أثر ليلة صيف سعيدة مرت سريعة تحت النجوم وكان يريد لها طويلاً ويأبى الزمان إلا أن تنفّر وتذهب الى الابد، وها هي قصيدة « البحيرة » أثر شمس صغراء كالورس في شهر أكتوبر ابتساماً وداع الصيف، كآبة الغروب، كون يتأهب للرقاد، روح فاترة ضعيفة، وها هي ذى قصيدة « الحريف » إحساس بالزوال الخفي الصامت الملازم للأشياء المنقضية بانقضاء الأيام. وتوالى الاعوام، شواطئ يخيم عليها الغسق وأمجاد ضائعة في هاوية الماضي، وها هي ذى قصيدة خليج بايا (Golfo de Baia) :

« . . . هكذا كلُّ شئٍ يتحوّل ، وكل شئٍ يزول »

« وهكذا نحنُ انفسُنا نَمُضُ »

« ولكنْ — واحسرتاه — دون أن نترك من الأثر »

« إلا ما يتركه على صفحة الماء هذا الزّورقُ »

« الماخِرُ بنا في خضمٍّ يمتحى فيه كلُّ شئٍ . . . »

هذه هي ميزة غزل لامتريين، وذلك ما يجب أن يكون عليه الغزل — فهو مُبهم كالمواطف التي يبعثها في النفس وهو لطيف رقيق لكي يؤثر دون أن يؤلم، ويُبذل العيون دون أن يسيل ماء الشؤون .

شعره الفلسفي

كل هاته العواطف الدافقة ، والزفرات المتصاعدة ، والأشواق الزوجية ، قد أودعته لامرتين في ديوانيته : التأملات الأولى . والتأملات الجديدة .

ولكن هل من الممكن أن يستمر الشاعر في ذلك السبيل ؟ فها يمكن من خلو شعر لامرتين من الأشكال المرئية والصور النائية والمادة المتنوعة فانه لا بد له من وحي جديد يستمد منه إلهاماته وإلا لكان مضطراً الى الإعادة والتكرير — نعم لقد أدّاه الحب إلى تناول المشاكل التي تتعلق بالإنسان وماهيته فتكلم على الموت والخلود ، والأمل والإيمان ، والروح والدين ، ومجد الله وعنايته الأزلية ، ولكنه أحسّ بأنه قال كل ما يُقال في هاته الأغراض وفرغ ما عنده في الحب ولواقفه . ولذلك أخذ يتساءل أين يتجه بتلك العبقرية الفياضة والروح الجياشة التي لا تنضب ولا تسكل . أليس هو القائل في قصيدة الشاعر المحتضر :

« أنا أغتني يا صيحابي كما يتنفّس الإنسان »

« ويُغرّد الطائر ويعزف الهواء ويخرّ الماء »

وفي الحين الذي كان يبحث فيه لامرتين عن مكان القرار ظهرت^(١) في فرنسا موجة قوية من تلك الموجات التي تظهر إثر النورات . وقد وجّه نبار هذه الموجة جميع مفكرّي العصر الى العطف على الإنسانية والتألم لأجل المجتمع فالتجّه لامرتين مع هذا التيار الى الشعر الفلسفي في الوقت الذي شعر فيه من جهته بضرورة إكساء أدبه شيئاً من العواطف الخارجية objectives والخروج قليلاً من دائرة الشعر الغنائي الذاتي إلى الملحمة الرمزية تتجرد فيها العواطف والانشغالات من التعبير الداخلي الذاتي Subjective .

فابتدأ السير الى هاته الغاية بتلخيص كتاب أفلاطون عن موت سقراط وإتمام سفرة هارولد التي مات عنها ييرون . ولم يكن له فيها من الآراء الشخصية إلا الشيء القليل . ولم يدخل حقيقة الى الشعر الفلسفي الا بملحمة كبرى في حظوظ الإنسانية تصوّر لها وعمل برنامجها ولم ينظم إلا بدايتها ونهايتها وهما : جوسلين وسقطه ملاك^(٢) .

(١) حوالي ١٨٣٠ (٢) تُرجمتا الى العربية بقلم الأديب إلياس أبي شبكة .

وحوادث هاته القصيدة تتلخص في أنّ ملاكاً سماوياً (صيدار) أحبّ فتاة من الأناسيّ هي ديدحى وقد كلّف بها كلفاً شديداً اضطره لأنّ ينقلب بشرياً ويسرى عليه قانون الفناء السارى على البشرية — ورضى الله بهذا التغيير ولكنّ قدّر على الملاك الساقط أن يموت ويحيا، وتظلّ روحه تناسخ مارة بالعصور والأجيال من مبدأ الخليقة الى آخرها ولا يزال يتطهر بالآلام المرضى بها ويرتفع بمجهوده الذاتى ويعرج بروحه الانسانية الى الروح الكلى الذى هو غاية كل المخلوقات ، والنهاية التى تسير حثيثاً نحوها . وقد شرح هاته الفكرة الرئيسية فى الرؤيا الثامنة وفيها يقول :

« ابحث عن الله ! إنّ فكرة الإله هي علة الكائن »

« ووظيفة الكون هي التعريف به »

« إنّ كلّ الكائنات لتجدّ السير الى من صدرت عنه . »

« وما الحركة التى تحرك العوالم الا ذلك الاندفاع »

« الذى يدفعها الى الأبدى ويجعلها تتسابق »

« الى الفناء فى ذاته »

وإذا كان الانسان يحيره وجود الشر فى صنعة الله فليعمل إلى التأمل فى الإله .

فالشعر يحجوه من يهرب منه ويخلقه من يؤمن بوجوده :

« قال الحكيم ^(١) فى نفسه يوماً : إذا كنت ابن السماء »

« فهل الشر كامن فى — وهل هنالك — أيها الألم »

« قطبان فى السماوات وروحان فى كيانى »

« وإلاهان فى يهووا ^(٢) »

(١) الحكيم : أى الملاك الساقط فى حالة بشريته . (٢) يهووا : هو الله بالعبرية

« ولكنَّ روحَ الله رأى شكَّةً فابتسم وعرج به »
 « في المنام إلى نقطة اللانهاي أبن يمتدُّ النظر »
 « الإلَّهى إلى البدايات والأوساط والنهايات »
 « وقال له : أنظر . »

فنظر الانسان وفهم أنَّه وهو بين الظلمة والنور يكون في الضياء أو في الظلام حسب مكانه من الارتفاع أو النزول . وبعبارة أشمل إنَّ الانسان قادر على تكييف حياته علواً أو سقوطاً حسب إرادته واستعداده وانه لا وجود للشر والقبح إلا في عقل من لا يستطيع الفهم وفي عين من لا يستطيع النظر . فالانسانية في حيرة ضميرها القاصر ، وعدم إدراكها للحقيقة المطلقة ، وفي الخصومة بين غرائزها المتناقضة تتردد في مهبِّ الأهواء بين الروحانية والحيوانية :

« وهكذا تتصارعُ في قلبه طبيعتان »

« وهو بنفسه سببُ عظمة نفسه »
 « هو حُرٌّ في نزوله ، وحُرٌّ في صعوده »
 « ولكنَّ حريته هاته تكون اما سببَ مجده أو عاره »
 « فالصعودُ أو النزول هما السماء أو الجحيم »

تنزل فاذا بذلك الملاك السماوى مظلم جوانب النفس جامد الروح ، متألم الجسد وذلك هو الجحيم . وتصعد فاذا البعث ، واليقظةُ الروحية ، والمجد الحقيقى ، والجزاء الوفاق ، وتلك هى السماء المحصل عليها بالألم المرضى به والتضحية المقبولة عن طيب خاطر . وهكذا يغلب التفاؤل على هاته الفلسفة ويدور محورها على الرضى بالألم الذى يرى فيه الشاعر أكبر باعث للجهد والنشاط وأعظم حاجز للسير نحو الكمال وخير مطهر للنفس من أدائها وحقاراتها :

« أنت تكونُ الانسان أيها الألم كما تكونُ البوتقة »
 « سبيكة الذهب ، وألسنةُ اللهب قطعَةُ الفولاذ »
 « . . . انَّ من لم يعرفك ما عرف من الدنيا شيئاً »
 « فهو يمتسئ في الأرض على رؤودٍ ومهمل »

« ولكنه ليس بحَيٍّ فيها . »

وقد عدَّ سانت بييف تلك القصيدة ملحمةً فرانساً ، وأمِّل أن تكون للفرنسيين كالأوديسى لليونانيين ولكنَّ العناصر الخارجة عن الموضوع والتطويل الممل هو الذى جعل الناس يزهدون فيها رغمًا عما فيها من القطع العالية حقاً سواءً فى الوصف أو فى التعبير عن أصدق العواطف وأعمق الحقائق .

محمد الحلبوى

نونس :



الطيور الصداحة والشعراء

(التعريف بأهمها لمناسبة نقد العقّاد)

الكروان

بفتح الكاف والراء ، والأنثى كروانة . ويجمع على كِرْوَان بكسر الكاف على غير قياس . وقال الفارمى : كِرْوَان ليس بجمع كروان إنما هو جمع كَرَأً والى هذا ذهب سيبويه وحكى انه يجمع على كراوين ، ويجمع أيضاً على كِروانات ، طائر فى قدر الدجاجة طويل الرجلين ، منعقف المنقار طويله ، حسن الصوت لاينام الليل

وذكره الدميرى قال « يشبه البط لاينام الليل يسمى بضده من الكَرَى » . وذكره ابن سيده فى مخصصه ص ١٥٥ ج ٨ قال : هو طائر بعظم الدجاجة غير أنه أسبط وأطول عنقاً وأطول رجلين ، رأسه بعظم رأس الدجاجة وزمكّاه قصيرة وعينه زرقاوان ،